ORTHODOX LEGACY

كلمةٌ من القلب
في ذكرى الأربعين لرقاد
الأب الإيكونوموس انطوان ميشال ملكي

بول أنطوان ملكي وإيلي سمعان رزوق

باسم عائلة الأب أنطوان ملكي المغبوط الذكر وأولاده الروحيّين وأولاد رعيّة القدّيس سيسوي الكبير.

أبدأُ، يا إخوةُ، كلمتي بقولٍ للقدّيس إيرينايوس أسقف ليون، كان يردِّدُهُ المتروبوليت المثلث الرحمات أنتوني بلوم – وهو أحدُ كبارِ الآباء المعاصرين –: "إنَّ عظمةَ اللّهِ هي الإنسانُ الحيُّ بالكلّيّة".

أبونا طوني، أبي، تجسيدٌ حيٌّ لهذه الكلماتِ المُلهَمَةِ من الروحِ القدس. فقدْ كانَ بالفعلِ إنسانًا حيًّا بالكلّيّة.

عاش أبونا، من دونِ تردُّدٍ، من دونِ خوفٍ، واضعًا ملء فكرِه وإرادتِه وقلبِه وصلاتِه في كلِّ تشعُّبات حياتِه الأرضيّة، جاعِلًا إيّاها تتقاطعُ في دربٍ واحدةٍ غايتُها الوحيدة الربُّ يسوع. فحصلَ بذلكَ بين الكهنةِ الأحرص والأكثرَ أمانةً، وبين الآباءِ الروحيّينَ الأكثرَ محبّةً، وبين الأساتذةِ والباحثينَ، المُحرِّكَ الأوّل، وبين الرجالِ الأكثرَ شجاعةً، وبين الأبناءِ الأوفى، وبين الإخوةِ الأحنّ، وبين الأزواجِ الأكثرَ حبًّا وبين الوالدينَ... أفضلَ أبٍ.

صائرًا كبولسَ العظيم، "كُلًّا للكلِّ ليُخلِّصَ الكلّ" (١ كور ٩:٢٢)، كان يعيشُ، ويعمَلُ، ويعلّمُ، ويصلّي، ويتنسّكُ، ويخدمُ، ويتنفّسُ، لا لشيءٍ دنيويٍّ البتّة، بلْ لمجدِ الله وخلاصِ

الإنسان. فأضحى إناءً نقيًّا للروح القدس، يدفقُ من خلالِه الثالوثُ القدّوس النِّعمَ، والشفاءَ الجسديَّ والروحيَّ، والتعزيةَ، والتشديدَ، لكلّ من قصَدَ الكنيسةَ طالبًا صلاتَه.

أبونا طوني... لم يكتفِ فقطْ بأنْ يعطيَ كلَّ ما لديه في كلِّ ما عملَ وعلَّمَ، بل كان دائمًا، ولكلٍّ منّا نحن أبناءه الروحيّين، حجرَ الزاويةِ الذي عليه تتكسَّرُ ميولُنا إلى الكسلِ والضعفِ والتقصير، وصوتَ الضمير الذي يحثُّنا على إعطاءِ الأفضلِ والوصول إلى الأعظم روحيًّا.

ففي كلّ عملٍ قامَ به، وكلِّ إرشادٍ روحيٍّ ألْقمَنا إيّاه، وكلِّ نصيحةٍ أعطاناها، كانَ يسألُنا باسِمًا: "وإن لم يكنْ هدفُ حياتِكَ القداسة، فلماذا تضيّعُ وقتَك؟"، ليصبِحَ سؤالُه هذا مسموعًا أبدًا بصوتِهِ الرزينِ والحنونِ في آنٍ، يتردَّدُ في مسامِعِنا وفي قلوبِنا، داعيًا إيّانا إلى التوبة والقداسة كلَّ حينٍ، كصوتِ السابقِ الصارخِ في البرّيّةِ، إلى منتهى الدهور.

لا وبلْ أصبحَ أبونا طوني حجرَ الزاويةِ لأنطاكيةَ بأسرِها، عليهِ تكسَّرَ الفكرُ المعوَجُّ لكثيرين، وبنى آخرونَ عليه بيوتَ إيمانِهم الصلبة.

فأبونا طوني لم يقبلْ قطُّ أن يبتعدَ، ولا بحَرفٍ واحدٍ، عن تعاليمِ الكنيسةِ الحقّةِ التي تسلَّمناها في تقليدِنا الكنسيّ من آبائِنا القدّيسينَ عبرَ العصور... حتّى أنّه كلّما اصطدمَ بفجوةٍ في التقليد الأنطاكيّ، ناتجةٍ منْ سوءِ ترجمةٍ أو من عَدَمِها، كان يعود إلى كتابات الآباء لترجمة تعاليمِهم ونشرِها، مؤمِنًا بالفعلِ بأنَّ لا حياةَ حقَّة، ولا فضائلَ مكتمِلَةً، ولا محبّةً كاملةً، ولا قداسةً فعليّةً، إلّا تلكَ التي تتمُّ بالإيمانِ الصحيحِ بربّنا يسوعَ المسيح.

أبونا طوني، هذا الرجلُ الذي أُعطِيَ وزناتٍ كثيرةً، وعانى كثيرًا، وصبرَ كثيرًا، وأحبَّ كثيرًا، كثَّرَ هذه الوزنات في زمانٍ ومكانٍ صَعُبَتْ فيهما تجارةُ الصالحات. هذا الكاهنُ "الحيُّ بالكلّيّة"، أظهرَهُ الربُّ مستحِقًّا لكلماتِه التي نقلَها إلينا الرسولُ الإنجيليُّ متّى: "وأمّا مَن عمِلَ وعلَّمَ، فهذا يُدعى عظيمًا في ملكوتِ السماوات" (متّى ٥:١٩). فأقول إذًا بإيمانٍ، بصوتي وصوتِ أبنائِه الروحيّينَ وكلِّ أبناءِ رعيّةِ القدّيسِ سيسوي: اِسترحْ في العَظَمَةِ يا أبونا، واذكرنا أمامَ

عرشِ الآب، فلقاؤنا ليس ببعيدٍ، إذ قالَ الربُّ: "نعم إنّي آتي سريعًا". آمين. تعال سريعًا أيّها الربُّ يسوع" (رؤ ٢٠:٢٢).

المسيح قام!

عفصديق، الكورة، لبنان
السبت في ١٣ تموز ٢٠٢٤
عيد جامع لرئيس الملائكة جبرائيل
عيد القديس استفانوس الذي من دير القديس سابا

الإنسان والآلة

المثلث الرحمات المتروبوليت بولس بندلي

نشرت هذه الكلمة في النشرة الرعائية الأسبوعية لأبرشية عكار الارثوذكسية "البشارة" في العدد ٣٠، ٢٧ تموز ١٩٩٧، بمناسبة سيامة مؤسس المجلة الأب أنطوان ملكي شماساً.

يوم السبت في التاسع عشر من هذا الشهر ولمناسبة عيد القدّيس ساسين بحسب التقويم الشرقيّ وفي كنيسة عفصديق الرعائية، وُضعت يدا سيادة ملاك أبرشيّة طرابلس والكورة وتوابعهما المتروبوليت إلياس (قربان) الجزيل الاحترام على رأس ابنٍ روحيٍّ عزيزٍ جدًّا على قلوبنا، وقد ساعدنا كثيرًا في أبرشيّتنا في إدخال برامج على الكومبيوتر، عنَيتُ به طوني ملكي، لتنتدبه "نعمة اللّه التي في كلّ حينٍ للناقصين تُكمّل وللمرضى تشفي" إلى درجة الشموسيّة المقدّسة.

أيّها العزيز رتبتكَ رتبةُ خدمة – الشمّاس إنسانٌ يخدم، يحمل جناح الملائكة ليطير إلى الناس حيث تقتضي خدمتهم. هكذا عرفناكَ قبل انتدابك ببركة رئيس كهنةٍ محبٍّ لله يسعى لأن يستنفر طاقاتٍ أوجدَتْها نعمة اللّه لكي تكون الكنيسة بحقٍّ عروسًا لسيّدها الفادي الإلهيّ – عرفناكَ تخدم ولذلك انتقلتَ من خدمةٍ إلى خدمة.

الخطر المُحدِق بالإنسان هو خطر سيطرة الآلة عليه أن يصبح ممكنًا عوض أن يسيطر بما أعطاه اللّه من قوّةٍ وصورةٍ بهيّةٍ على الآلة فيجعل منها أداة الخدمة البشرية، أي أن يحوّلها من آلةٍ تستعبد فتهدمه إلى وسيلةِ خدمةٍ حقيقيّةٍ تساعد الإنسان في أن يُبنى على صخرة الإيمان فيرتقي ليصل إلى ملء قامة المسيح.

إنّنا نصلّي من أجلك ومن أجل عائلتك الكريمة وشريكة حياتك سميرة التي هي من أبرشيّتنا المحروسة بالله. نُصلّي من أجل أن تتابع عمل الخدمة التي التزمتها لكي تجعل ربّكَ وإلهكَ ربًّا وسيّدًا على الآلة، فتُمسي أداةً مِطواعةً في يد البشر ليُمجّدوا بها الإله الذي أعطى سلطانًا كهذا للإنسان مخلوقه فيتمجّد به.

ندعو لك مع كهنة أبرشيّتنا وشمامستها ومع أبنائها أجمعين، ونحن على يقينٍ بأنّك أيضًا ستتضرّع من أجلنا عندما ترفع جناحك نحو السماء.

إنّ مثالك الحيّ سيجعل شبيبتنا تتيقّن أنّ نعمة الله تقوّي وتجدّد الشباب عوض أن تجعله يذوي ويذبل.

باركَكَ الله وحفظَكَ بنعمته على الدوام. آمين.

مطران عكّار وتوابعها

بولس

الرعاية

الأب أنطوان ملكي

الرعاية هي فنّ شفاء المؤمنين. فالكنيسة، كونها جسد المسيح، لا بدّ من أن تعمل على علاج أعضائها، شأن كلّ جسمٍ في هذا الكون ينشئ دفاعاته ويطوّر نظمه لكي يبعد المرض أو الجراثيم خارجًا. على ضوء هذا المبدأ تُقرأ القوانين الكنسيّة. فالصوم ليس تعذيبًا للنفس ولا إماتة، واحترام الأوقات والأماكن ليس تعقيدًا لما هو بسيط، والالتزام بمختلف التعاليم هو للشفاء أو للمساعدة على الشفاء. والمرض في الكنيسة قد لا يبدو بمظهر العَطَب، إذ قد تكون كنائسنا مكتظّةً وجوقاتنا في أفضل الأحوال ومؤسّساتنا في قمّة الازدهار، من دون أن تكون صحّة كنيستنا بخير. الشفاء هو الأرثوذكسيّة، والأرثوذكسيّة هي العقيدة المستقيمة أو الرأي المستقيم، كما أنّها العمل المستقيم. لا تقوم العقيدة من دون العمل ولا العمل بمعزل عن العقيدة يكون صحيحًا. من هنا أنّ أحد مظاهر المرض هو مغايرة ما يُعمَل به للقوانين. فلو أخذنا موضوع الأكاليل مثالاً، نجد أنّ القوانين تمنع الإكليل في الأصوام وفي مساء السبت، كما أنّها تحدّد الكنيسة مكانًا للإكليل، فلا البيت ولا الفندق ولا المنتجَع هي أمكنة إقامة هذا السرّ. مع هذا، تُقام الأكاليل هنا وهناك وفي السبوت وفي يوم قطع رأس يوحنّا المعمدان وفي عيد الصليب. أين العَطَب؟ في القوانين؟ لا فهي واضحة. إذًا، العَطَب في تطبيقها، أي في الرعاية.

قبل المتابعة في مناقشة الموضوع، ينبغي التشديد على أنّ الرعاية عمليّةٌ في الاتّجاهين. الراعي يرعى رعيّته وهي ترعاه. رعايته لها تقوم في تعليمها العقيدة المستقيمة وتوجيهها نحو العمل

المستقيم. ورعايتها لا تكون فقط في تأمين معيشته أو بعضٍ منها، بل في عدم جعله يحسّ بأنّه موظّفٌ لدى مجلس الرعيّة، وفي عدم الضغط عليه ضغطًا يؤدّي إلى انحرافه في العمل. كثيرٌ من الحالات الشاذّة سببها أنّ بعض الرعيّة يُصرّ على أن تكون الأمور على هواه. فإذا رفض الراعي تلوكُه الألسُن على أنّه عنيدٌ لا يحبُّ ولا يرحم ورَجعيٌّ متعصّب. وإذا سايرَ الراعي آخذًا المعاندين بطول الأناة والترفّق، تلوكُه الألسن على أنّه محبٌّ للمال مستعدٌّ لعمل أيّ شيءٍ في سبيله.

نجِدُ اليوم أكثر من نوعٍ من الرُّعاة. هناك المتكاسلون ولن نحكي عنهم. هناك الفاعلون الذين لا تُحرّكهم الأحداث بل هم يبادرون: زياراتهم دوريّة، يعودون المرضى، يعزّون الحزانى، يسألون عن المتغيّبين عن الصلاة. إلى هؤلاء نجد المتفاعلين الذين أعمالهم ردّة فعلٍ على ما يجري، فلا يزورون من دون سببٍ كالمرض أو التعزية أو التهنئة أو المباركة. أغلب هذه الفئة من الذين ارتضوا أن يحملوا صليب الكهنوت إلى جانب وظيفةٍ أو عملٍ فكَبُرَت عوائلهم ومعها رعاياهم، وصاروا بالكاد يستطيعون أن يلحقوا بهذه وتلك. هؤلاء مهتمّون ويرغبون في أن يكونوا فاعلين. وفي هذه الفئة أيضًا مَن بدأ مسيرته الكهنوتيّة فاعلاً مبادرًا منفتحًا فتوالَت الضربات عليه من الأبناء وأحيانًا من الإخوة، فصدمه أنّ بين الناس مَن لا يرى في الكنيسة إلّا مؤسسةً للتزويج والتجنيز، ولا يرى في الراعي سوى ناشطٍ اجتماعيّ، وراعَهُ أنّ الكثيرين من الناس، من العامّة والإكليروس، يتعاطون القوانين الكنسيّة بِتَذاكٍ فلا يرون فيها إلّا آراءً وُجدَت ليتمّ تخطّيها حسب الحاجة. وأخيرًا نجد الذين يعملون، وأحيانًا يعملون كثيرًا، لكنّهم يرون رضا الله من رضا الرعيّة، عن طيب نيّةٍ في أغلب الأحيان. هؤلاء مستعدّون لأن يُناولوا مَن يتقدّم، كائنًا مَن كان، أو أن يقبلوا بأيّ عرابٍ، أو أن يُقيموا الإكليل حيث يشاء العروسان وفي أيّ وقتٍ كان،

أو أن ينقلوا الأعياد من مواعيدها ويختصروا الخِدَم بشرط أن تكون الرعيّة راضية. طيّبو النيّة من بينهم يرون في مثال الراعي الصالح الذي لحِقَ بالخروف الضالّ إلى الجبال دعمًا لمسلكهم. لكنّهم لا ينتبهون إلى أنّ الراعي الصالح لحِقَ بالخروف الضالّ وأتى به إلى الحظيرة، لكنّه لم يحمل العلَف والماء له إلى الجبال حتّى يأكل ويتنعّم هناك، ويعود إلى الحظيرة إذا رضيَ. أن يحمل الراعي العلَف للخروف الضالّ لا يعبّر بالضرورة عن محبّة، بل هو انحرافٌ يفتح الباب للخراف جميعًا حتّى يهرب كلٌّ منها إلى حيث يرغب. ماذا يفعل الراعي إذا تشتّتَ قطيعه بعضٌ في الجبال وبعضٌ في الأودية وبعضٌ في السهول؟

إنّ التعاطي الدهريّ مع الرعاية، والاستخفاف بقوانين الكنيسة، يُعيقان الكنيسة عن أداء دورها، أي عن شفاء الناس وتهيئتهم ليستحقّوا الله. لا يكفي أن يخاف الناس، رعاةً ومَرعيين، من الله، فهذا عمل العبيد؛ ولا يكفي أن يؤمنوا به ويحترموه، فهذا عمل الأجراء، بل ينبغي لهم أن يكونوا أبناءً، فيُحبّوه ويتقدّموا إليه بخوفٍ وإيمانٍ ومحبّة. أن يستحقّ المؤمن التقدّم على هذا الشكل هو نتيجة الرعاية التي تُرضي الله ويرجوها المُخلِصون.

* نشر هذا المقال للمرة الأولى في مجلة التراث الارثوذكسي في السنة الخامسة، العدد الأول، تشرين الأول ٢٠٠٨

عن الاستبداد

الأب أنطوان ملكي

«يقولون: الاستبداد يُليّن الطباع ويُلطّفها، والحقّ أنّ ذلك يحصل فيه عن فقدِ الشهامة لا عن فقدِ الشراسة، ويقولون إنّه يعلّم الطاعة والانقياد، والحقّ أنّ هذا فيه عن خوفٍ وجبنٍ لا عن إرادةٍ واختيار، ويقولون إنّه يربّي النفوس على احترام الكبير وتوقيره، والحقّ أنّه مع الكراهة والبُغض لا عن ميلٍ وحبّ، ويقولون إنّه يقلّل الفسق والفجور، والحقّ فيه أنّه عن فقرٍ وعجزٍ لا عن عفّةٍ أو دين، ويقولون إنّه يُقلّل الجرائم، والحقّ أنّه يُخفيها فيقلُّ تعدادها لا عددها».

هذا الكلام مُقتَبَسٌ من كتاب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" لعبد الرحمن الكواكبي الحلبي، الذي كتبَ ما كتبَ في أواخر القرن التاسع عشر واصفًا ما كان يراه من العثمانيّين. كتابٌ عُدتُ إليه مؤخّراً لأنّه يساعد على فهم تفكير المستبدّ، فيصير توقّع ما سوف يلي من أعماله أكثر دقّة. فوجدتُ فيه الكثير من الوصف الذي ينطبق على حالنا. وكما نقول في العاميّة: "كأنّو قاعد معنا".

نحن ليّنو الطباع لُطَفاء، لأنّنا فقدنا الشهامة، ولم يعد يستفزّنا ظلمٌ ولا يثيرنا فساد. نحن مطواعون نُقادُ بسهولة، فيظنّ أنّ مَن يقودنا أنّنا مطيعون، مع أنّه يعرف أنّنا جبناء وخائفون على علاقاتنا وعلى خُبزنا وعلى الغد الذي لسنا نملكه، ويبني على ذلك. نحن نظهر بمظهر مَن يحترم الكبير لأنّ مبدأنا تقبيل اليد والدُّعاء لها بالكسر. نحن طاهرون مشعّون، مَن لا يماشينا نرميه بالفسق ونُخرجه، ومَن يماشينا نرفعه حتّى ولو جعلنا الليل نهارًا. نحن لا نعدّ أخطاء أحد، كي لا يعدّ أحدٌ أخطاءنا.

آه أيّها الكواكبي، وكأنّكَ بيننا في قولكَ "الحكومة المستبدّة تكون طبعًا مستبّدةً في كلّ فروعها من المستبدّ الأعظم إلى الشرطيّ، إلى الفرّاش، إلى كنّاس الشوارع".

الاستبداد لا بدّ من أن يتفشّى لأننّا نسكت. نسكت إذا استبدّت الحكومة كما نسكت إذا استبدّ كَنّاس الشوارع. و"تواسي فئةٌ من أولئك المتعاظِمين باسم الدين الأمّةَ فتقول: «يا بؤساء: هذا قضاءٌ من السماء لا مردّ له، فالواجب تلقّيه بالصبر والرضاء والالتجاء إلى الدعاء، فاربطوا ألسنتكم عن اللغو والفضول، واربطوا قلوبكم بأهل السكينة والخمول، وإيّاكم والتدبير فإنّ الله غيور».

يا له من وصفٍ دقيق. المتقدّمون يدفنون رؤوسهم في الرمل، ويقولون إنّ السكوت عن الظلم، وعن الفساد، وعن العَبَث بالقانون، وعن التفرّد، وعن غياب الحقّ، كلّ هذا السكوت هو تواضعٌ ومسكنةٌ وتسليم إلى الله. لكنّ الناس تُحسُّ وتُميّز. وحدهم المتملّقون إذا رأوا لا يرون وإذا أحسّوا يتخطّون إحساسهم. كثُرَ المراؤون المتحدّثون بالقانون ليُبرّروا أخطاء الحاكمين ويُضفوا عليها هالة الحكمة. كثُرَ متعدّدو الوجوه الذين يصفّقون للظلم. كثُرَ روّاد الكنائس وفرغت من شعبها.

"إِنْ رَأَيْتَ ظُلْمَ الْفَقِيرِ وَنَزْعَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِي الْبِلاَدِ، فَلاَ تَرْتَعْ مِنَ الأَمْرِ، لأَنَّ فَوْقَ الْعَالِي عَالِيًا يُلاَحِظُ، وَالأَعْلَى فَوْقَهُمَا" (جامعة 5:8).

هذا رجاؤنا والكلام لمَن يفهم.

* نشر هذا المقال للمرة الأولى في مجلة التراث الارثوذكسي في السنة الرابعة عشرة، العدد السابع، نيسان ٢٠١٨

الفتور وحال الأرثوذكسيّة اليوم

الأب أنطوان ملكي

في رؤيا يوحنّا، نقرأ السيّد يقول لمَلاَكِ كَنِيسَةِ اللاَّوُدِكِيِّينَ: "أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ، أَنَّكَ لَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا. لَيْتَكَ كُنْتَ بَارِدًا أَوْ حَارًّا! هكَذَا لأَنَّكَ فَاتِرٌ، وَلَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا، أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِي" (رؤيا 3:15-16). يذكر الآباء الذين يتناولون هذا النصّ أنّ كنيسة لاودكية تشير إلى كنيسة الأيّام الأخيرة التي يسود فيها الفتور. ما هو الفتور وما هي المشكلة فيه؟

الفتور في الحياة الروحيّة هو حالة عدم الاكتراث التي قد تتكوّن لأسبابٍ مختلفة. يعلّم القدّيس قوزما الإيتولي أنّ الفتور يأتي من قلّة الإيمان. الضعف البشريّ والمثاليّة البشريّة قد تؤدّيان أيضًا إلى الفتور. والاستكبار أيضًا قد يزرع الفتور. ليس الهدف هنا معالجة الفتور من الزاوية النفسيّة بل من زاوية علاقته بالجهاد الروحيّ، بالغيرة المقدّسة وبالشهادة للحقّ. في تعليمه، يدعو القدّيس سلوان الآثوسيّ إلى الجهاد: "لا تتهرّب من الجهاد، فالربُّ يحبّ المحارب الشجاع. الربُّ يحبُّ الروح الباسِلة". الفاتر يتهرّب من المواجهة، من مواجهة أهوائه، ومن مواجهة الأخطار التي تُحدق بالمحيطين به، ومن بينهم وربّما على رأسهم الكنيسة. يؤكّد القديس ثالاسيوس في الفيلوكاليا أنّ الفتور هو من اللامبالاة الناتجة من الابتلاء بمحبّة الذات.

أمّا عن المشكلة في الفتور، فالقدّيس يوحنّا السلّمي يرى أنّ الفتور يؤدّي إلى موت الإحساس في الإنسان. يقول القدّيس ذياذوخوس فوتيكي إنّ الفتور يمنعنا من الشعور بالرغبة القويّة

بالبركات المُعدَّة لنا في الحياة الآتية، وينتقص من الحياة الروحيَّة مُحطّمًا هذه الحياة العابرة بشكلٍ مفرط.

تطولُ لائحة الأقوال الآبائيّة التي تحذّر المؤمنين من الفتور وتمتدّ إلى قدّيسين معاصرين. يقول معاصرنا القدّيس نيقولا فيليميروفيتش: "في عالمِ اليوم من اللامبالاة والفتور الروحيّ، والتي هي جذور الإلحاد والابتعاد عن الله، يُحَثُّ الإنسان على تجاهل الجذور الروحيّة وأصول الممارسات الدهريّة عندما تبدو أشكالها الخارجيّة عاديّةً ومسلّيةً وغير ضارّة. إنّ عقيدة الإلحاد تكمن في العديد من هذه الممارسات التي تنكر وجود الله والشيطان معًا". الأب جورج موريللي الذي ينير على الطبّ النفسيّ المعاصر بفكر الآباء يقول إنّ اللامبالاة التي تعكس الفتور هي أكثر الخطايا ممارسةً في هذا الزمن، وإنّها أهمّ انعكاسات الدهريّة.

وكما قد يُصيبُ هذا الفتور الأفراد يُصيبُ الجماعة، التي هي مجموعة الأفراد. قد يحاجج البعض أنّ هذا الكلام لا يصحُّ في الكنيسة التي يستحيل أن يصيبها الفتور لأنّ رأسها المسيح. هذا قولٌ لا غبار عليه، لكنّ واقع الكنيسة يتطلب منّا أن نتفكّر في ما أوصلَنا إلى حيث نحن. من أهمّ العوامل التي أضعفت الكنيسة عبر العصور هو الفتور المُستشري على المستويات كافّة. فالرؤساء، متى أصابهُم الفتور، يمتنعون عن الوقوف مع الحقّ، ويدفعهم تفضيلُ الهدوء بحجّة السلام والتدبير إلى غضّ النظر عن أخطاءٍ قد تكون سوابق. والشعب يمنعه الفتور من الوقوف مع الرؤساء حين يقطعون كلمة الحقّ باستقامة، ومن مطالبتهم عندما يَحيدون عن الحقّ، سواء عن كسلٍ أم عن جهل أم عن نسيان.

لو أخذنا اليوم الشركة التي انقطعت بين الكرسيّين القسطنطينيّ والروسيّ والتي تشغل العالم الأرثوذكسيّ. هذا يُحمّل المسؤوليّة للقسطنطينيّة وذاك يحمّلها لموسكو. الحقّ يقال، إنّه فيما

تتحمّل القسطنطينيّة المسؤوليّة القانونيّة عن الأزمة في أوكرانيا، لكنّ الأرثوذكس كلّهم يتحمّلون مسؤوليّة الوصول إلى هذه الحالة التي أدّت إلى انقطاع الشركة. الكلّ مسؤولون لأنّهم فاترون، البطاركة والأساقفة والكهنة والرهبان والشعب. وهذا الفتور ليس وليد الساعة، بل قد تسلّل إلى الكنيسة منذ أن تحرّرت من الاضطهاد، لكنّه تكثّف مع مطلع القرن العشرين. هذا الفتور سمح للمنطق المسكونيّ بأن يتغلغل في عروق الكنيسة، وترك منافذ كثيرةً تسلّلت منها الدهريّة إلى حياتها. لامبالاة الأرثوذكس سمحت بأن يتنقّل إنسانٌ كملاتيوس ميتاكساكيس بين أربعة كراسٍ مترئّسًا، وقبلت بأن يتقدّم إنسانٌ مثل أثيناغوراس، وأن يرفع أناثيما هو يستحقّها عمّن لم يتُب، والأسوأ أنّ اللامبالاة والفتور جعلا الرؤساء الآخرين يتبعونه بدلًا من أن يدينوا أفكاره ويدينوه. لامبالاة الأرثوذكس، من كلّ الطغمات وعلى كلّ المستويات، جعلتهم مكسر عصا يتدخّل في شؤونهم السياسيّون ويفرضون مصالحهم، محلّيًا وعالميًّا. لامبالاة الأرثوذكس صمّتْ آذانهم عن سماع صوت أنطاكية حين تظلّمت لأنّها ظُلِمَت في قطر، وصربيا حين تظلّمَت لأنّها ظُلِمَت في أرضها وهي اليوم مهَدَّدةٌ في مكدونيا والجبل الأسود، وروسيا حين ظُلِمَت في أوكرانيا وهُدِّدَت في أستونيا وروسيا البيضاء، والقدس حين ظُلِمَت بخلع بطريركها الشرعيّ وتركيب اللصوصيّ مكانه.

المؤلم هو أنّ هذا كلّه جرى بمشاركة الكلّ. ينطبق علينا اليوم قول إرمياء النبيّ: "يَشْفُونَ كَسْرَ بِنْتِ شَعْبِي عَلَى عَثَمٍ قَائِلِينَ: سَلاَمٌ، سَلاَمٌ. وَلاَ سَلاَمَ" (14:6). السلام الفعليّ يأتي مع الحقّ. شعب الله بحاجةٍ إلى رعاة، إلى قادة، إلى مَن يرفعه ويدلّه على الطريق إلى الله. "الرُّعَاةَ بَلُدُوا وَالرَّبَّ لَمْ يَطْلُبُوا. مِنْ أَجْلِ ذلِكَ لَمْ يَنْجَحُوا، وَكُلُّ رَعِيَّتِهِمْ تَبَدَّدَتْ" (إرمياء 10:21). لم يقل النبيّ إنّ الرُّعاة عملوا ما يُبدّد الرعيّة، بل إنّها تبدّدت لأنّهم لم يعملوا. تبدّدت لأنّهم غير مبالين. تبدّدت لأنّهم فاترون.

إنّ عدم العمل هو خطيئةٌ توازي العمل الخاطئ. هكذا يعلّم الرسول يعقوب في رسالته: "فَمَنْ يَعْرِفُ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنًا وَلاَ يَعْمَلُ، فَذلِكَ خَطِيَّةٌ لَهُ" (17:4).

إنّ إهمال هذا الأمر وذاك، وغضّ النظر عن هذا وذاك، تارةً بحجّة السعي إلى السلام وأخرى بحجّة التدبير، يُحطّم الكنيسة ويُشوّه صورتها في عيون أبنائها ويكشف مكامن ضعفها لأعدائها. هذا لاحظه القدّيس بابيسيوس الآثوسي فجاء قوله دقيقًا: "عندما يكون هناك احترامٌ للأشياء الصغيرة، يكون هناك احترامٌ أكبر للأشياء الأكبر. عندما لا يكون هناك احترامٌ للأشياء الصغيرة، فلن يكون هناك احترامٌ للأكبر. هكذا حافظَ الآباء على التقليد".

حتّى من خارج الكنيسة الأرثوذكسيّة، نقرأ عند سي آس لويس في قصّته "رسائل المسمار" أنّ الشيطان كان يدرّب ابن أخيه وورموود لكي يقوم بخدمةٍ فعّالةٍ له في العالم، فقال له: "أنا، الشيطان، سوف أحرص دائمًا على وجود أشخاصٍ سيّئين. أمّا وظيفتك، يا عزيزي وورموود، فهي أن تزودني بأشخاصٍ غير مبالين".

إنّ فتور الأرثوذكسيّين يضع الأرثوذكسيّة في خطرٍ جدّيّ قد يؤدّي إلى تفكّكها. هذا بدأ بين أنطاكية والقدس، واليوم هو بين القسطنطينيّة وروسيا، وقد يتطوّر ليصير داخل الكنائس نفسها. أبشع أوجه هذا الخطر هو أنّ أحدًا لا يتعاطى معه روحيًّا بل الكلّ يناقشه "سياسيًّا". لم نسمع دعوةً من بطريركٍ أو أسقفٍ أو غيرهما إلى صلاةٍ لحفظ الكنيسة. ما مِن أحدٍ يحكي عن التوبة إلّا الكتاب المقدّس: "كُنْ غَيُورًا وَتُبْ. هنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي. مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَجْلِسَ مَعِي فِي عَرْشِي، كَمَا غَلَبْتُ أَنَا أَيْضًا وَجَلَسْتُ مَعَ أَبِي فِي عَرْشِهِ." (رؤيا 3:15-19)

* نشر هذا المقال للمرة الأولى في مجلة التراث الارثوذكسي في العدد الأول من السنة الخامسة عشر، تشرين الأول ٢٠١٨